

الاستيفاء اللطيف

في خاطر الحاج إلى أفدست مطاف
وهي الرحلة الحجازية لأبي البیان ونادية الزمان

الأبیر مکیب رسلان

وقف على تصحيحها وعناق حواشيا

التبني حجة تشييك رضا

مفتي مخ المثلثة

الطبعة الاولى في سنة ١٣٥٠

مطبعة المنار بدمشق

شارع الأنش رقم ١٤

مقدمة التصدير للناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَّ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ
مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ • لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا
وَأَطِيعُوا أَلْبَانِسَ الْفَقِيرِ •

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ
آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ
الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الآيات من سورة الحج)

يجب بيت الله الحرام، ويزوره مسجدرسوله وروضته عليه أفضل الصلاة
والسلام، ألوف كثيرة من مسلمي الآفاق، أكثرهم من العوام والفقراء، وبعضهم
من العلماء والادباء والكتاب والشعراء، ويقل في جلتهم من يفقه ما يعمل، ومن
يعي ما يسمع، ومن يعقل ما ينظر، ويقل في هؤلاء من يكتب لآخوانه المسلمين
ما يفيدهم شيئا لا يجدونه في كتب الفقه أو التاريخ والرحلات والادب
بل نرى من حجاج إخواننا المصريين من يكتبون في كل عام ما يفض
الله تعالى ويسوه جيرانه في حرمه، وجيران رسوله (ص) في روضته،

وخدام قاصدي هذين الحرمين من المطوفين والمزورين ، وحكامهما المحافظين لأمن السكان ، وآمين البيت الحرام ، وأطباءهما المحافظين على صحة أهلها ، وصحة من يتشرف بإداء المناسك والزيارة فيهننا، بل يكتبون ما ينفر المسلمين عن إقامة هذا الركن العظيم من أركان الاسلام ، ويصدمون عن إحياء هذه الجامعة العامة التي امتاز بها على جميع الأديان، - فهذا يشكو من شدة الحر ، وذلك يتمل من كثرة النفقة ، وآخر يتبرم بما نزعهم من تقصير المطوفين وطعمهم

وأغرب من كل هذا أن منهم من ينتقدون منع البدع والخرافات، والطواف بالقبور والاستغاث بالأموات ، وان منهم من كتب في هذا الشهر مشنعا على حكومة الحجاز التقصير في عمارة مسجد الرسول (ص) وتجديد فرشته ، وهو يعلم ان حكومة الحجاز الحاضرة على فقرها ، قد فعلت ما لم تفعله حكومة قبلها ، من حفظ الامن ، وتسهيل السبل ، وتوفير المياه ، والاسعافات الصحية للحاج ، فان هذا قد صار متواترا ، ويعلم أيضا ان حكومته هو قد منعت ما كانت ترسله الى الحرمين وأهلها من الاموال ، والحقوق المقررة لهما التي كانت ترسلها في كل عام ، وان هذه الحقوق هي بمض ما وقفه الملوك والامراء، وأهل البر من الاغنياء ، ويعلم ان وزارة الاوقاف تبجي من أوقاف الحرمين في كل عام مشات الالوف من الجنيات ، وتصرفها في غير ما وقفت عليه - ويعلم أيضا ان الحكومة التركية، قد استحال حكومتها لا دينية، وضمت أوقاف الحرمين

الى أملاكها ، بل هي تمنع من يريد الحج من شملها ، وحببتها الظاهرة على هذا النعم ان الترك أحق بأمرالهم أن تبقى في بلادهم من أن تصرف في بلاد العرب !!

وخير من هؤلاء الصادين عن سبيل الله ، والمنهزين عن شعائر الله ، والمؤذنين لجيران الله ، من يؤلفون كتباً في رحلاتهم الحجازية ، ينقلون فيها أحكام المناسك الفقهية ، وبعض الاخبار التاريخية والأدبية ، ومن كتبوا في رحلاتهم وفي الصحف ما أملاه الحق من وصف أمن الحجاز ، وتوفير أسباب الراحة للحجاج ، والثناء على الحكومة السعودية ورجاء الخير العظيم للإسلام فيها .

بيد أنك قلما ترى فيما كتبوا عبرة جديدة ، أو شيئاً من الاقتراحات المفيدة ، أو ترغيباً في البذل لعلمارة المسجد الحرام ، ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو لتسهيل السبيل على الحجاج والزائرين ، وتوفير المياه لهم والمقيمين ، اقتداء بما كن من فعل السانف الصالحين

دع ما هو أعلى من ذلك منزعا ، وأروى مشرعا ، وأبعد في الإصلاح غاية ، وأقوى في درء الخطر من الإسلام وقاية ، فقد علم الواقفون على سياسة الاستعمار الأوربي أن خطره قد أحاط بجزيرة العرب ، ونقوذ بعض دولة تغلغل في بعض أنحائها ، ثم طفق يوغل في أحشائها ، ويبلغ في دماؤها ، فان المستعمرين قد استولوا على سكة الحديد الحجازية ، التي كان الغرض الظاهر القريب من انشائها تسهيل أداء الفريضة ، والباطن البعيد حفظ

الجزيرة نفسها من الاستثمار الاوربي ، ومن قتل الاسلام في عقر داره ،
 وإزاحته عن قراره ، تمهيدا لمحوه من الارض كلها ،
 كذلك كان شأن المسلمين في حجهم وزيارتهم ، وكذلك كان مادونوا
 في رحلاتهم ومقالاتهم ، الى أن أذن الله تعالى لعبده المجاهد في سبيله
 بماله ونفسه ، ولسانه وقلبه ، وعلمه وعمله ، الامير شكيب أرسلان ، الذي
 بحق لقبته أمته بأمر البيان ، أن يستجيب لأذان ابراهيم خايل الرحمن ،
 فيؤدي فريضة الحج ، ويمرض مرضا يضطره بمداء المناسك ، إلى الالتجاء
 الى الطائف ، والتوقل في جبالها وذراها ، والتنقل في مزارعها وقراها ،
 والمبوط في أخفافها وأوديتها ، فينال الشفاء والمافية من مرضه ، ومن
 مرض سابق له ، بما شم من هواء نقي ، وشرب من ماء روي ، وجنى من
 ثمر شهي ، ويشاهد ما ثم من قابلية للممران ، لا يكاد يفضلها مكان ، في عصر
 عم الحجاز فيه العدل والامان ، وأن يصف ذلك بقلبه السيال ، وبيانه الساسال ،
 الذي يجري فتكبو في غاياته جياد الفرسان ، ومن ذا الذي يطعم في لحاق
 أمير البيان ، في مثل هذا الميدان ؟ ميدان التاريخ وعلم الاجتماع وال عمران ،
 وما فيه من دبر السياسة في هذا الزمان ، ولا سيما سياسة الامة العربية والاسلام
 أحمد الله تعالى أن وفق أخي شكيبا لأداء المناسك ، وشهود ما قرنه
 بها القرآن من المنافع ، وانما هي منافع أمته ، لا منافع شخصه وأسرته ،
 وأن يسر له السير في تلك الارض ، لفقه ما أرشد اليه عقله ، وهدى له

قلبه ، فيعرف بنفسه جبالها ووهادها ، وأغوارها وأنجادها ، وسهوبها
وصفانها ، ومجاهلها ومعارفها ، ثم يبيت مادفن في بطون الكتب من تاريخ
عمرانها ، وكنوز معادنها ، مع بيان أماكنها ، ووسائل استخراجها من
مكائنها ، ويجلي للعقول ما فيها من العبر البالغة ، ويقرن بها وصف حالتها
بالحاضرة ، ويستنبط منها ما يجب على الأمة العربية وحكوماتها ،
والشعب الاسلامية وزعمائها ، من توجيه أصدق ما أوتوا من إرادة
وعزيمة ، وأفضل ما أعطوا من علم وثروة ، في سبيل عمران الحجاز ،
وصيانتة من خطر الاستعمار ، وان ذلك لا يتم لهم الا بعمران جزيرة
العرب كلها ، لان انتقاصها من أطرافها ، يفضي الى الاحاطة بسائر أكنافها
تلك الغاية البعيدة المرعى ، هي التي وضع لها الامير رحلته الحجازية
التي سماها (الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج الى أقدس مطاف)
وقد أقام الدلائل على إمكان ما دعا اليه وسهولته ، من قابلية في المكان ،
ومواتاة من الزمان ، وأشار الى ما يعترض به على ذلك من شبهات داحضة ،
وكر عليها بما ينقضها من حجج ناهضة ، بما لم يبق لمعتذر عذرا مقبولا ،
ولا لمقتصر قولا معقولا

ثم انه لم يقف في ارتساماته دون هذا المقصد الاسمي ، بل ألمّ فيها
بكل ما يهم المسلم من حال الحجاز وأهله وحكومته ، فأفاض القول في تعظيم
شأن المياه فيه ، وما يرجى من زيادتها بالوسائل المصرية ، ولا سيما الآبار

الارتوازية ، واستشهد التاريخ على ما كان من عناية السلف الصالح بعمرانه ،
 وحبس الاوقاف الواسعة عليه ، وعناية الخلف الطالح بتخريب ما عمر واه .
 واضاعة أكثر ما وقفوا ، وتمهيد حكمهم الفاسقين ، سبيل ذلك لسالي ملكهم
 من المستعمرين . وضرب لذلك الامثال ، بتاريخ أكبر المعمرين من الملوك
 والامراء والوزراء ، وأسهب في بيان أحوال المطوفين والمزورين وقناعتهم ،
 وما يجب من اصلاح حالهم ، ونوه فيها بفضل الحكومة السعودية الحاضرة .
 وخدمة ملكها للحجاز ، وأعضائها والمقدم منها تعميم الامنة في بدو البلاد
 وحضرها ، قريبتها وبميدها ، وما يرجى بحكمته من سائر اركان اصلاح فيها .

وقد منّ عليّ ، بان عهد بنشر هذه الارتسامات إليّ ، بان أطبعها
 بمطبعة المنار ، وأشرف عليّ تصحيحها بنفسي ، لتعذر ارسال مثل الطابع
 اليه في أوربة ليتولى تصحيحها بنفسه ، بل منّ دليّ بالاذن لي بتعليق بعض
 الحواشي عليّ بعض المواضع التي أرى التعليق عليها مفيداً لقارئها ، ليكون
 اسمي مقرونا باسمه في هذا الاثر الخالد له في خدمة الرب والاسلام ،
 كما منّ عليّ قبله بمثله في رسالته التي جعل عنوانها (لماذا تأخر المسلمون
 ولماذا تقدم غيرهم) وهي الرسالة التي

سارت بها الركبان تطوي نفنفا فنفنفا وسببها فسببها
 فاضطربت بها بعض دول الاستعمار وزلزلت زلزلا شديداً ،

حتى قيل انها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها ، وهي أحق بها
وأهلها ، فانقردت بهذه العداوة للإسلام دون من أغروها بها
ولقد كان سماح الامير حفظه الله لي بهذا وذاك اعلاما لقارئي الرسالة
والرحلة بما بيننا من الاخوة الاسلامية الصادقة ، والاتفاق في المقاصد
الاصلاحية النافعة ، للامة العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي نفتح
روحها في كل منا شيخنا الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) بالتبع لاستاذه
. ووقف الشرق وحكيم الاسلام (السيد جمال الدين الافغاني) قدس الله
روحهما ، وأجزل ثوابهما

هذا وان الامير أمتع الله بعلمه وعمله ، ولسانه وقلبه ، قد وضع
للرحلة حواشي كثيرة عزوتها اليه في مواضعها ، وكان يجب أن أشير إلى
ذلك في ديباجتها ، وليكنني ما علمت بها إلا عند بلوغ أول حاشية منها
وقد كازلي وقفة ونظر في اقتراحه على الحكومات المختلفة في الدين
والسياسة أن تشدد على حجاج بلادها الفقراء ، فيما تقرضه من الشروط
للسماح لهم بالسفر إلى الحجاز ، لا لأن هذا الاقتراح منكر في نفسه ، بل
لأن الحكومات الاستعمارية التي تكره للمسلمين المرزوثين بسيطرتها عليهم
أن يؤدوا هذه الفريضة ، لم تقصر في ارضاقهم بالشروط المالية والصحية ،
بل أنا أعلم علم اليقين أن جميع الدول الاستعمارية تمتت قيام المسلمين بهذه
الفريضة ، وتعاون على صدم عنها بما تستطيع من حول وحيلة ، ولولا
مالبوآخرها وتجارها من المنافع من نقل الحجاج لكان تشديدهم في البصد

أكبر ، ولكن ما وضعوه من العوائير والمقالب في سبيل الحج باسم المحافظة على الصحة ، قد أنالهم بعض مرادم منه بقلة من يتحمل مشقته من ملوك المسلمين ، وأمرائهم المترفين ، وأغنيائهم المحسنين ، وزعمائهم المفكرين وقد كانوا حاولوا ان يقرروا في مؤتمر طبي عقد بمصر في أوائل عهد الاحتلال البريطاني أن الحجاز بيثة وبائية بطابعه ، يجب جملة تحت سلطة الحجر الدولي دائماً ، فجاهد المرحوم سالم باشا سالم كبير اطباء مصر (والطبيب الخاص لسمو الخديو توفيق باشا وأسرتة) يومئذ جهادا كبيرا دون ذلك ، حتى دحض كل شبهة تؤيد هذا الاقتراح ، وأثبت بالادلة الفنية الطبية والتاريخية ، أن الحجاز ليس بوطن لوباء الهيضة الوبائية ، (الكولرة) ولا لنيرها من الأوبئة السارية الممعدية . ولكنني لم أضع لهذه المسألة حاشية ، بل أدعها الى علم الامير الواسع ، ورأيه الناضج ، لعله يستدرك ما يرى استدراكه ممحصا لهذا الرأي (١)

(١) ارسلنا الى الامير مثلا من هذه المقدمة قبل طبعا فكتب إلينا هذا

الاستدراك : —

« اقتراح تشديد الحكومات على الفقراء بدمم الحج لم يكن مرادي به إلا منع الفقراء المعدمين الذين لا يستطيعون الى الحج سييلا ، والذين اذا جاءوا الى مكة صاروا وقرأ على أهلها وحكومتها

وأما الفقراء الذين لم يبلغ فقرهم هذه الدرجة فليسوا المراد بكلامي . واني أوافق الاستاذ على كون دول الاستعمار تشدد الشروط عمداً على من يريد الحج المستطيع وغير المستطيع ، وذلك قطعا لصلاة المسلمين بمكة وعزلا لم عن اخوانهم في الدين . واذا سمحت احيانا بالحج فيكون على كره منها وتمتاض من ذلك باكره =

وها أنا إذا أذف إلى قراء العربية هذه الرحلة النفيسة ، والارتسامات
لللطيفة ، ولا ريب عندي في أنهم يقدرونها قدرها ، ويؤمنون معي بنشرها ،
وبث الدعاية إلى العمل بما فيها من النصيحة الثمينة ، التي تتوقف عليها حياة
هذه الأمة المسكينة ، التي كانت هي النائرة لدعوة الاسلام ، والمفيضة
لنور هدايته ، والمفجرة لأنهار حضارته ، وباحبائنا وعمران بلادها يناط
بمقاؤه ، ويعود رواؤه ، وينضر إهابه ، ويتجدد شبابه ،

= الحجاج على ركوب بواخرها ، وتفرض عليهم أجرة فاحشة وتحشرهم فيها حشراً يزيد
قهرهم ، وفي السنة الفاتنة لم تزل فراسة تتنوع في الشروط وتمنت على الحجاج
حتى لم يقدر على الحج إلا ٣٠ شخصاً من كل جزائر المغرب مع أن الذبن كانوا
تووا الحج م أكثر من الف وتسعمائة

ولا يكتر على الفرنسيين بمد ذلك أن ينوا بكرة واصيلاً على مسلمي المغرب
بالحرية الدينية التي امتعوم بها ، وان يملأوا جرائدهم بما منحوم منها حتى يخال
من لم يطلع على الحقيقة ان مسلمي المغرب راتون في مجاهج الحرية الدينية كما
يصنفها هؤلاء الخطباء والكتاب

والحقيقة أن أهل المغرب جميعاً في عناء شديد من كل جهة ولا سيما من جهة
حرية الاجتماع بسائر المسلمين بل من جهة حرية اجتماعهم بمضهم مع بعض ومنذ
نحو شهر نادى المنادي في أسواق قاس بأنه ممنوع ذهاب التجار للبيع أو للاشراء
بين قبائل البربر . وجميع الناس يعلمون انه لا يقدر أحد من الفقهاء ولا من حملة
القرآن ولا من مشايخ الطرق الصوفية ان يدخل قرى البربر ولا أن يجول في
الخيال التي هم فيها إلا باذن خاص من الحكومة على حين مئات من الرهبان
والراهبات والاقسة والمبشرين يجولون في بلاد البربر كيف يشاؤون وينوب
المدارس والكنائس

فهذا هو كنه الحرية الدينية التي تمن بها فراسة على مسلمي المغرب . ومن
كان في شك من كلامنا هذا فليذهب إلى تلك البلاد أو فليسال الثقات من أهلها

وأختم هذا التصدير لها بما يؤيد قولي هذا من الاحاديث النبوية في شأن الحجاز ومستقبله ، وكونه مأرز الاسلام وممقله ، وحصنه وموئله ، عند ما يشتد على المسلمين البني والمدوان ، ويركبون المناكير فينا كرم الزمان ، او تستباح بيضتهم بما عرضوا عن هداية القرآن

قال رسول الله (ص) « ان الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية

الى جحرها » (١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة .

وأعم منه وأدل على المراد قوله عليه الصلاة والسلام « إن الاسلام

بدأ غربيا وسيمود غربيا كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية

في جحرها » رواه مسلم من حديث ابن عمر

وأعم منه وأظهر قوله (ص) « ان الدين ليأرز الى الحجاز كما تأرز

الحية الى جحرها ، وليعلمنّ الدين من الحجاز ممقل الأروية (٢) من رأس

الجبيل . ان الدين بدأ غربيا ويرجع غربيا فطوبى للغرباء الذين يصاحون

ما أفسد الناس بعدي من سنتي »

وأوسع من ذلك كله وأدل على الباعث عليه مارواه أحمد والبخاري ومسلم

(١) ارز كالم انضم واجتمع وانكش (وورد لغة من بابي ضرب وقعد)

والمعنى انه سيمود الى المدينة والحجاز كله ويأوي اليه كما تعود الحية الى جحرها ولا سيما اذا خافت

(٢) الاروية بضم الهمزة وكسر الواو وتشديد الياء أنقى الوعول وهي تنصم

في أطالي الجبال . والمعنى أن الاسلام سيضمف ويصير غربيا ومضطهدا في الاقطار فلا يجد له حصنا ومقلا إلا الحجاز فينصم فيه كما تنصم الاروية في شناخب الحبال

من حديث ابن عباس ان النبي ﷺ أوصى عند موته بثلاث أولها « اخرجوا المشركين من جزيرة العرب » وما رواه أحمد ومسلم والترمذي عن عمر (رض) انه سمع رسول الله ﷺ يقول « لا تخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما » وما رواه أحمد من حديث عائشة (رض) قالت آخر ما عهد به رسول الله ﷺ أن قل « لا يترك بجزيرة العرب دينان » وروى عن أبي عبيدة عامر بن الجراح قل: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ « اخرجوا يهود أهل الحجاز ونصارى نجران من جزيرة العرب » والمراد انه آخر ما أوصى به عند موته ، وأما آخر كلمة نطق بها ﷺ فهي « اللهم الرفيق الاعلى »

وقد بينت في مواضع من جزء التفسير المأثور وغيره حكمة هذه الوصايا النبوية، وهي ما أطاع الله تعالى عليه رسوله وأخبر به كما في حديث ثوبان (رض) وغيره، من تداعي الامم على المسلمين كما تداعي الأكلة على قصعتها، وسلبهم ملكهم، واضطهادهم لهم في دينهم، إلى أن يضطروا إلى الالتجاء إلى مهد الاسلام الاول، وممقله الاعظم، وما أرزه الآمن، وهو الحجاز وسياجه من جزيرة العرب. ولذلك أوصى بأن يكون هذا المعقل خاصا بالمسلمين لا يشاركهم فيه غيرهم، فهذه الوصية من دلائل نبوته ﷺ قد ظهر سرها في هذا العصر

وما نحن أولاء نرى أعداء الاسلام مازالوا يطاردون المسلمين حتى

انتهوا بهم إلى جزيرة العرب ، وطفقوا ينازعونهم فيها ، بل وصلوا إلى الحجاز واستولوا بمساعدة بعض أمراءه دلي أعظم موقع من معاقلة البرية والبحرية (ما بين العقبة ومعان) وصاروا باستيلائهم على سكة الحديد الحجازية على مقربة من المدينة المنورة التي خصها الرسول ﷺ من هذه الوصايا بالذكر، وأنشأوا يؤسسون وطننا لليهود في جوارها من فلسطين التي يدعون أنها لهم وحدهم ، وسيطلبون ضم خيبر إليها ، بأنها كانت لهم وأخرجهم عمر بن الخطاب منها .

فاذا لم تتعاون جميع الشعوب الاسلامية على مساعدة حكومة الحجاز بالمال والنفوذ الصوري والمعنوي على حفظ الحجاز وعمرانه ، بل إلجائها إلى ذلك واضطرارها إليه ، فستقطع قلوبهم اسفا وندما ، ويذرفون بدل الدموع دما، إذ لا ذات مندم ، ولا متأخر ولا متقدم؛ ولقد كنت في حيرة لأهتدي السبيل إلى أقرب الوسائل لهذا العمران ، حتى وجدت مرسوما في هذه الارتسامات ، داحضة أمامه جميع الشبهات ، فبادروا إليه أيها المسلمون (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات)

وكتبه ناشر الارتسامات .

السيد محمد رشيد رضا

منشىء مجرى المنار